

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 223 - 237
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

ثقافة الرجل الأزرق وواقعه بين المرأة كمؤنث حقيقي والصحراء كمؤنث مجازي

سعيدة درويش
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية جامعة الحاج لخضر باتنة

مقدمة

الإنسان في حوار دائم مع الطبيعة يسألها فتجيب، أو ترجئ الجواب إلى زمن آخر، يجمع فيه هذا الكائن الاجتماعي مفاتيح أخرى لعوالم وأسرار يكتشف كنهها كلما حان وقت التجلي والبوح والاعتراف. والصحراء بفضاءاتها الشاسعة ورمالها الانسيابية الهادئة الثائرة، ومناخها ذي العنفوان والسطوة، تلقي بسحرها الأزلي وتعويذتها العجيبة على الإنسان، تحاوره، فيزيد تعلقه بها، ويختارها موطنا حاضنا له، ولا يقبل بالبديل عنها..

هذه العلاقة بجدليتها تشبه – في جوهرها– شغفا كبيرا وقديما بين المؤنث والمذكر. لقد آثر الإنسان التارقي أن يقيم حضارته خارج حصار أسوار المدن، وتوحد مع الصحراء، ذلك المؤنث المجازي، توحدا عنوانه الحب والإخلاص والتبجيل، ولكنه وهب حبا أكبر للمؤنث الحقيقي ألا وهو "المرأة التارقية"، فهي بوقارها ولحافها الأصيل المنتقى الألوان، وحليها الفضية المعجونة بالأسرار، وطلاء أصابعها الأزرق الجميل، صاحبة المكانة الرفيعة في المجتمع التارقي، تعزف (الإمزاد) المسكون بالأساطير والترانيم، الذي ابتكرته بعبقريتها الإبداعية المتفردة، وتشارك الرجل في الرأي العام وصناعة القرار، وتتمتع بحقوق لا يمنحها للمرأة إلا مجتمع محب ومقتنع بدورها في بناء الحضارة. ومن هنا انبثقت إشكالية المداخلة المقترحة والموسومة ب: "ثقافة الرجل الأزرق وواقعه بين المرأة كمؤنث حقيقي والصحراء كمؤنث مجازي"، حيث يطرح التساؤل حول العلاقة بين كل من المرأة والصحراء كمتغيرين هامين ومختلفين، يجتمعان فقط في كونهما مؤنث يمجده التارقي ولا يستغني عنه، وبالتالي يمكن صياغة التساؤل بشكل آخر: هل ثمة تعاضد بين المؤنث الحقيقي وهو المرأة، والمؤنث المجازي وهو الصحراء، في صياغة ثقافة التارقي وواقعه؟ أو هل يمكن أن يكون ثمة تواطؤ بين المؤنثين ضد الرجل لانتزاع السلطة من بين يديه؟، وإذا كانت جلسات الشاي عند التوارق لها فلسفتها المتعلقة بالحياة والموت، فكيف لا تكون لهم فلسفاتهم الكثيرة والمتنوعة في موضوعات أخرى أكثر

أهمية، بل يمكن القول بأنها مصيرية. وبغض النظر عن الصعوبة التي تعتور بيئة ومعيشة التوارق، إلا أن حياتهم ما زالت محط اهتمام الباحثين في الأنتروبولوجيا والمهتمين بالتنوع الثقافي باعتبار أن الثقافة التارقية أنموذجا متفردا يتضمن نظما اجتماعية متميزة تشكل فيما بينها تساندا وظيفيا يظهر في شكل ثقافة تجعلهم منسجمين مع البيئة التي يعيشون فيها، فللصحراء سحرها، وللأنوثة أسرارها، ولعالم الرجل الأزرق بريقه، وعليه، فإن هذا الموضوع يحاول الكشف عن بعض العلائق الموجودة بين عناصر المجتمع التارقي من حيث المكان والإنسان والفكر، كما يحاول تحليل مجموعة من الرموز والسلوكيات في المجتمع التارقي.

التوارق من الناحية الأثنولوجية

اتفقت الدراسات على نبل أخلاق التوارق وشجاعتهم ووصفهم الملازم لهم، وهو كونهم الأحرار الذين لا يمكن لهم العيش تحت وطأة ضيم، أو حكم خارجي يستهدف إلغاء شخصيتهم أو يحاول طمس معالمها. والحقيقة أن التوارق أصحاب هوية واضحة المعالم، وهي هوية متسقة مع ثقافتهم، وتعبر عنها تعبيرا دقيقا، ف"الحياة الاجتماعية تشكل نظاما متكاملا تترابط كل عناصره فيما بينها بشكل متناسق، بما يتفق مع القاعدة الأنتروبولوجيا الثقافية التي تقول إن القيم والعناصر المكونة للنظام الثقافي متمثلة ومختزنة بأمانة في أعماق الفرد، وتشكل برنامجا خفيا يضبط سلوكه وينظمه بشكل آلي يقوم في الغالب على الفعل ورد الفعل"[1]، وذلك ما يبدو متحققا في ثقافة التارقي وسلوكه كفرد يحتكم إلى مرجعية جماعية، وهذه المرجعية التي تطبع الحياة الاجتماعية بكاملها استمدت خصوصيتها من جملة من المواضيع المتعلقة بالناحية الأثنولوجية:

التسمية والأصول: اختلف المؤرخون في اسم التوارق فمنهم من يرى أنه مشتق من "ترك" وذلك بأن العرب المغاربة اعتنقوا الإسلام فترة من الزمن ثم ارتدوا عنه عدة مرات، فسموا" التوارق"،و ذهب ابن خلدون إلى أن سبب تسميتهم "التوارق" أنهم تركوا دين المسيحية معتنقين الإسلام. كما ذهب بعض المؤرخين إلى أن كلمة "التوارق" مكونة من مقطعين "توا" بمعنى شعب و"رق" اسم المكان، فيكون "التوارق" بمعنى "شعب رق" وهناك تفسير آخر لكلمة "التوارق" ورد في رواية لعب فيها الخيال دوره، وتبقى لها دلالتها الرمزية والأنتروبولوجية[2]، حيث تعني التسمية المتروكين. والبعض يرى أنهم كانوا جل سفرهم ليلا لأنهم يطرقون الليل والصحراء، وفي رواية أخرى أنهم ينتسبون إلى طارق بن زياد، ولكن التسمية يرجح أنها تأتي من "تماشق" أو "تمازغ" وتعني بلغة البربر "الرجال الأحرار" أما المفردة فهي تأتي من "تارقة" أو "تارغا" وهي منطقة فزان بجمهورية ليبيا. وتجمع جل الدراسات أن أصول التوارق ترجع إلى صنهاجة التي يصل عدد قبائلها إلى أزيد من سبعين قبيلة أشهرها جداله ولمثونة ومسوفة قدمت من اليمن والجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا. ويفيد مصدرآخر إلى أن التوارق أو أحفاد "التين هينان" يرجعون في الأصل إلى هذه الشخصية

التاريخية، لذلك تعتبر "التين هينان" السلف الأموسي لكل القبائل النبيلة، والملكة الأولى لمملكة التوارق.

اللغة والموطن: "التماشاق" لغة التوارق وحروف هذه اللغة تسمى "التيفناغ" وتجعل منهم أحد الشعوب الإفريقية النادرة التي تملك أبجدية نظيفة يرجع وجودها إلى ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد. فلغة التوارق التي يسمونها "تماهق" أو "تاماشاك" هي إحدى اللهجات العربية القديمة، ومعناها بالتارقية الحروف التي تنسب إلى الفينيقيين، وحروف "التيفناغ" تكتب من اليمين إلى اليسار في العادة، ويضع بعض التوارق حرف (+) التاء على رقاب الإبل تسمية لها وهي الحرف الذي تبدأ به كلمة "توارق" و"تماشاق". وقد ذهب الكثيرون من كتاب الغرب إلى أن هذا الشكل هو الصليب يستعمله التوارق لأنهم كانوا قبل الإسلام نصارى[3].

وينتشر التوارق في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية مع موريتانيا إلى حدود السودان مرورا بشمال مالي وشمال النيجر وشمال تشاد وجنوب غرب ليبيا وجنوب شرق الجزائر. كما تنتشر مجموعات منهم ببوركينافاسو ونيجيريا ونستطيع أن نقول إنهم ينتشرون وسط الصحراء الكبرى من مدينة غدامس ودرج في ليبيا واوباري وغات إلى تمنغست بالجزائر وجانت وتيمياوين وبرج المختار على حدود مالي وتينبكتو بمالي وإلى طاوة بالنيجر واقيقمي على بحيرة تشاد وابشه في شرق تشاد تتناثر قبائل التوارق في هذه الصحراء، يتكون موطن التوارق من الواحات والوديان التي تشق جبال الطاسيلي (غات: جانت) والهقار (تمنغست) وأيير (اقدز)، واضغان (لكيدال)، حيث تبلغ القمم علو 3000 م[4]، إلا أن الجزء الأكبر من التوارق يعيشون في منطقة السهول والمراعي الفسيحة.

التوارق والمؤنث المجازي (الصحراء): فلسفة بحجم الأفق الأزرق

اللوحة الثقافية: الصورة النمطية للتوارق

ينظر الغربيون إلى التوارق، نظرة تمنحهم صورة نمطية تميزهم عن باقي الشعوب بل وحتى عن باقي البدو، وكنتيجة لتلك النظرة المأخوذة بذلك التميز:

أولا: احتكر التوارق صورة البدو الرحل في الصحراء، فبالنسبة لكثير من كتاب الغرب، تتموضع جملة من المعادلات: فالصحرء= البدو الرحل= التواررق، فكل الشعوب الصحراوية الأخرى من رحل أومستقرين تعد مقصاة من مخيال الغربيين الصحراوي، ويلاحظ أيضا أن توارق الأهقار هم فقط وحدهم المحظوظون في ذلك المخيال.

ثانيا: لا وجود لتارقي مستقر أو قار في مكان واحد في ذلك المخيال الغربي، وإذا وجد فهو زائف ومفتعل في ثيمة (موضوع) مصادرة، فالتوارق هم الرحل ضمنيا، وأي وجود لنمط آخر يعد فاقدا للنقاء الأصلي لما ينبغي ان يكون عليه التارقي.

هذه الثقافة المتميزة والمتفردة استطاعت أن تفتك إعجاب الآخر الأوروبي، بل وتفتنه إلى درجة الشعور بالغضب إزاء الطرف الثالث الموجود كوسيط بين التوارق وأوروبا، هذه العلاقة "الثلاثية" كما أسماها Paul PANDOLFI، في مقال له ينتقد فيه الكثير من الأدبيات الفرنسية على وجه الخصوص على طرحها المناور والمغالط فيما يتعلق بالتوارق ومرجعياتهم الأثنية، فلقد حاول الكثير من الكتاب إثبات ذلك التشابه وذلك الانتماء الثقافي والاجتماعي الأوربي للتوارق؛ إذ حاولوا بكل استماتة وجرأة فصل التوارق عن أصولهم الإفريقية والعربية والأمازيغية ، والإسلامية. وهو يعتقد أن أية دراسة أو تحليل – في الماضي أو الحاضر– يكتفيان بمجرد الوصف لصورة التوارق الغرائبية، دون طرح للتساؤل حول سبب اهتمام الغرب بهم وحول سبب إعطائهم ذلك التمثيل، يعد مجانبة للأهم وللتحليل في حد ذاته. فلا بد – حسب رأيه دائما– من فك رموز ذلك التمثيل لصورة نمطية تعد الأفضل بين باقي صور الثقافات المجاورة لثقافة التوارق، فصورة العرب الذين يجاورون التوارق من جهة الشمال، وصورة الشعوب السوداء لإفريقيا الساحلية من جهة الجنوب، تتسم بالسلبية. [5] وعليه، فالصورة النمطية للتوارق في الغرب –قديما وحديثا– صورة تقدير كبير ومكثف وفوق ذلك شامل وخالد، وقد مست أهم ما يتعلق بالتوارق ك (ثيمات) في تلك الصورة، فسر اللثام والترحال يوحي للغرب بفكرة التجوال والحرية، والنبل والحكمة والبساطة الخاصة بشعب من المفترض أن يعيش في تناضح مع وسط بيئي صعب. لقد افتتن الغرب بكل ماهو تارقي، لدرجة جعلتهم يحمِّلون خصائص ورموز التوارق أكثر مما تحتمله لأجل غاية واحدة هي إثبات انتماء التوارق إلى أوربا وثقافتها، لقد كرس الكثير من الكتاب والمؤلفين هذه الفكرة مثل: GAUTIER و[6] STEFANINI[7] وBANAMY وDEMOULIN، وقد سمحوا لأنفسهم أن يستخدموا مؤشرا واحدا ليؤسسوا مسلَّمة انطلقوا منها لإثبات التقارب الأوربي التارقي؛ إذ نظروا إلى التوارق على أساس أن:

– التوارق أصحاب بشرة بيضاء ولون أعين الكثير منهم أزرق، ثم راحوا يبررون لونهم الأسمر بجملة من المبررات كاللون الذي تمنحه الشمس لسكان الصحراء على العموم وبالنيلة التي يطلون بها وجوههم وأيديهم لتقيهم من البرد والحرارة، بالإضافة إلى كونهم – حسب ذلك الطرح دائما– لا يغتسلون وذلك كفيل بمنحهم اللون الأسمر والذي ليس أصيلا فيهم.

– الإسلام مجرد قشرة وطلاء كما هو الشأن بالنسبة للإسلام في أوربا، وقد حاولوا في مقارباتهم تقوية هذا الطرح من خلال جملة من المعطيات لتأكيد الأصل الأبيض للتوارق حيث استدلوا بالصليب الموجود في عصا التارقي ونقوشه على مسيحية التوارق.

– إقطاعية المجتمع التارقي وأرستقراطيته المستشفة من كون التوارق كانوا أسياد الصحراء وكانت فيهم الطبقية التي تجعلهم قريبين من إقطاعية أوربا العصور الوسطى حيث يقول

VERMALE: "تعود إلى الحياة –أو تقريبا– إقطاعيتنا الفرنسية القديمة بعاداتها، ومؤسساتها، ورمزيتها للشرف..." ويفند PANDOLFI ذلك كله بتأكيده على كون تلك الكتابات في هذا الشأن هي من طرف عسكريين يبررون فكرة الاستيطان، أو من طرف زملاء لأيديبولجيين يحنون إلى الأرستقراطية الفرنسية [8].

وهكذا يتوضح أن التوارق مكسب ثقافي تفتخر به أي دولة، بل وقد تحاول بعض الدول سرقة الموروث التارقي وتبنّيه، فإذا كان المحلل الأجنبي الذي تحركه الغيرة على الموروث الإنساني، يؤلمه تزييف الحقائق، فإنه من واجب الجميع الاعتكاف على دراسة هذا العالم المليئ بالأسرار والدفاع عنه.

التكيف لا التكييف: رحلة عشق واصطبار:

قسم بعض الباحثين البيئة إلى قسمين رئيسين البيئة الطبيعية والإنسان واحد من مكونات البيئة يتفاعل مع مكوناتها بما في ذلك أقرانه من البشر، ولعل فهم الطبيعة ومكونات البيئة والعلاقات المتبادلة فيما بينها يمكّن الإنسان من إيجاد وتطوير موقع أفضل لحياته وحياة أجياله من بعده، وفي ذلك الحيز المكاني بشقيه الطبيعي والمشيد، يتشكل ويتكون حيز آخر يلتحم فيه المادي والمعنوي لأجل تكوين نوع آخر من البيئة له علاقة بالإنسان من الجانب الحضاري والاجتماعي، فينبثق ما يسمى بالبيئة الاجتماعية كإطار من العلاقات يحدد ماهية علاقة حياة الإنسان مع غيره، ذلك الإطار من العلاقات الذي هو الأساس في تنظيم أي جماعة من الجماعات سواء بين أفرادها بعضهم ببعض في بيئة ما، أو بين جماعات متباينة أو متشابهة معاً في بيئات متباعدة، وتؤلف أنماط تلك العلاقات ما يعرف بالنظم الاجتماعية، واستحدث الإنسان خلال رحلة حياته الطويلة بيئة حضارية لكي تساعده في حياته فعمّر الأرض وغزا الفضاء، وعناصر البيئة الحضارية للإنسان تتحدد في جانبين رئيسيين هما:

– أولا: الجانب المادي وهو كل ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن والملبس ووسائل النقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليومية.

– ثانياً الجانب غير المادي ويشمل عقائد الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره وثقافته وكل ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائية كانت أم مكتسبة[9].

ومن هذا المنطلق كان تواجد التوارق في الصحراء الكبرى أجمل صورة لذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة، لقد عرف الإنسان التارقي حقيقة البيئة التي اصطفاها موطنا له، وأحبها حبا لا مزايدة فيه ولا تنازل. فقد أحب الفضاء والسماء، وأحب النخيل والإبل، والرمال والصخور، والتمور والواحات، إن من يسكن الصحراء يفترض فيه أن يصبر على حرارتها القاسية، وندرة مياهها، ووحشتها وتجردها من معالم المدنية المساعدة على العيش السهل، والصبر على كل هذا لا يتأتى إلا

من محب، يدرك قيمة ما يحب ويضحي لأجله...، لذلك فهم التارقي طبيعة الصحراء جيدا، وانطلق في تشييد حياته في أحضانها من فكرة بيئية رائدة، وهي"فكرة التكيف"، ففي الوقت الذي عكف فيه الإنسان في الحواضر والعواصم والمدن، على تطويع الطبيعة وقهرها بشتى السبل والوسائل والآلات، وتفنن في ذلك وأطلق العنان لمخيلته التكنولوجية الجبارة، ليستخدم الطبيعة ويسخرها لخدمة أحلامه وأطماعه التي لا يحدها شيئ، شيد التارقي حضارة احترمت الطبيعة، فانسجم التارقي معها، بل وكيف حياته بكل مظاهرها على وقع هذه الطبيعة المستعصية العنود، وقد تجلى هذا التكيف في جملة من المظاهر تكوّن في مجملها حياة التارقي ويومياته:

– الخيمة قيم وترحال: تذكر دومينيك كازاجو **Dominique CASAJUS** في مقال لها عن توارق النيجر:"خيمة التوارق الذين يعيشون بشمال النيجر، في منطقة " أغاديز " تعكس قيمهم، إنها لا تشبه بيت الجلد الذي يسكنه التوارق الأكثر توجها نحو الغرب، لكنها مكونة من نسيج من القش يجمعونه في سلال مصنوعة من جذور الأكاسيا....الخيمة تكون عادة مفتوحة من الواجهة الغربية وكل خيام المخيم تكون مصطفة بشكل إرادي من الشمال إلى الجنوب هناك يعيشون، ويأكلون، ويشربون الشاي، ويستقبلون الظيوف، وعلى العكس فإنهم نادرا ما يجلسون في الناحية الشرقية من الخيمة، حيث الجهة المعتمة من الخيام، ذلك الفضاء الذي يكون فارغا غالبا ومخصصا للصلاة..."[10]

فالخيمة هي ذلك الحيز المقتطع من فضاء الصحراء، ليلملم حياة التارقي، ويصنع حميميته، ويعكس قيمه كفرد لا كمجموعة، فهي المكان الذي يؤسس فيه عائلة؛ حيث يستقل بخيمة خاصة لإتمام مراسيم حفل الزواج، وحيث يستقبل ضيوفه. وتوفر الخيام مأوى آمن ضد حر الصحراء والمناخ القاسي. كما أن الكرم والضيافة يزيد من شرف التوارق، لذلك يبدو في وسط الخيمة دائما طاولة صغيرة لشرب الشاي والقهوة وهي دليل على حسن الضيافة للزائرين. إنه تقليد لتقديم الكرم والضيافة لكافة الزوار والعابرين. وتحافظ النساء على شرف العائلة وتقاليدها حتى في غياب الرجال عن الخيام. فالمرأة تهرع إلى الخارج تحمل آنية مملوءة بحليب الناقة كعلامة على الترحيب.

تبدأ حياة التارقي الأسرية مع الخيمة كعنصر هام وأساسي يشكل عالما خاصا بالمرأة والرجل وهما يؤسسان اللبنة الأولى في بناء وحدة اجتماعية جديدة؛ حيث ينتقل الزوجان بعد انتهاء احتفالات الزواج والتي تدوم سبعة أيام إلى خيمتهما الخاصة ويسمون هذه العملية ب"العزول"، أي الانفصال عن باقي المجتمع، انفصالا لا يعني القطيعة وإنما يعني تأسيس وحدة اجتماعية لها حيزها المكاني الخاص وهو الخيمة، أين يعيش الزوجان حياة خاصة ومستقلة. وفي ذلك رمزية انفصال عن الفضاء المطلق الذي تشكله الصحراء في حياة التوارق، بما أن ذلك الفضاء يوحد حياة التوارق ويجمعهم. وبما أن الخيمة تنتقل من مكان إلى مكان، دون هدم ودون مواد بناء تزيد من حجم

التلوث البيئي، فإن فكرة التكيف مع البيئة والحفاظ عليها، تبدو واضحة وعبقرية. وهكذا يهرع التارقي من مؤنث كبير هو الصحراء إلى مؤنث آخر هو الخيمة.

– اللباس جمال وأسرار: ظلت الملابس إلى جانب وظائفها في الستر والوقاية من عوامل المناخ المتنوعة؛ جزءا جماليا من حضارة الإنسان بسبب تعلق الإنسان وحبه للجمال، حتى إنها تصبح إنتاجا جماليا بحتا مرتبطا بالقيم الجمالية عند الشعوب والحضارات القديمة والمعاصرة، وحتى عند البدائيين[11]، ولقد تفرد التوارق في أشياء كثيرة تتعلق بهويتهم ونظرتهم للحياة، وليس بالغريب أن يطال هذا التفرد لباسهم، فرغم تقاطع لباس سكان الصحراء على العموم، واتفاقهم حول فكرة ستر سائر الجسد بالثياب، واتخاذ الملابس الفضفاضة، إلا أن الزي التارقي استطاع أن يتفرد بألوانه وشكله وأسراره، الأمر الذي جعله يستحوذ على إعجاب الجميع بما فيهم الأجانب الذين ما يفتأون يرتدون قطعة أواثنتين من ملابس التوارق.

ولا غرو، فالمبدأ الجمالي هو الأساس الثاني الذي تقوم عليه الثقافة، فهو الذي يطبع الصلات بطابع خاص، وهو الذي يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال[12]، فعادة يميل سكان الصحراء إلى الألوان الترابية والقريبة من البيئة وألوانها كالبني الفاتح بتدرجاته المائلة إلى لون الرمال، لكن التوارق انتقوا لونا آخر يربطهم بالسماء، فكان الأزرق لون اللباس والأصباغ، والأزرق في سيميولجيا الألوان يمثل: "السكينة والهدوء والحكمة واللانهاية، ويستعمل عادة في تمثيل الموضوعات الدينية"[13]، أوليست الحكمة هي النظر إلى الأفق البعيد، والنظر إلى الفضاء الرحب رحابة السماء بزرقتها ولا محدوديتها، إنها الترفع والترقي في سلم المبادئ والأخلاق والتعلق بما هو علوي ورفيع، وكل ذلك هو رسالة الأزرق إلى باقي الشعوب. كما أن الهدوء والسكينة مستمدان من الصحراء التي لا صخب فيها ولا ضجيج.. إنه عالم لا حدود له من التناغم والجمال، فالتارقي اختار أن يمثل الصحراء بزيه ويعبر عنها تعبيرا رمزيا يعكس درايته بالبيئة التي اختارها ويعكس حبه لها.

ولأن ثقافة التوارق ثقافة تعكس خلفية من التفسيرات والرمزية للعالم والحياة من حولهم، فإن الزي التارقي كان جزءا هاما من هذه العملية، ولعل اللثام الذي يضعه الرجل على وجهه دون المرأة تبين إلى أي مدى يمكن توقع الأسرار والخفايا من ثقافة التوارق؛ حيث يعتقد التوارق بأن اللثام يحمي الرجل من أذى الجن"كل أسوف"، وأن المرأة بما أنها تعيش في الخيمة وهي سيدتها، فالخيمة تحميها وتبعد عنها شر الجن.[14]

ويمتد سحر الأزرق وألقه إلى أصابع المرأة التارقية التي تجمل أصابعها بطلاء أزرق (النيلة، l'indigo) يزيد من أنوثتها وسحرها، ولكنه في الوقت نفسه له وظيفة وقائية من البرد والحرارة. وإضافة إلى اللون الأزرق الذي صنع تميز الزي التارقي، ظل اللثام ميزة أخرى حيكت حولها

الأساطير وتعددت التفسيرات، فالتارقي دائم اللثام منذ أن يبلغ، حتى وهو يأكل فإنه يرفع لثامه قليلا ويتناول الطعام من تحته ويغالي في ذلك حتى أثناء الوضوء أو التيمم فإنه يلجأ إلى الابتعاد عن عيون الناس واللثام غالبا ما يكون عمامة من القماش الأسود يلفها حول وجهه بإحكام حتى لا يظهر منه سوى الأهداب.. ولا يضعها حتى حينما ينام، وإذا ظهر شيء من ستره فكأنما هو العار بعينه !. وإذا خاض غمار حرب وسقط لثامه لا يعرفه حتى أقرب المقربين له.

الأسطورة التي يرويها الطوارق عن توارثهم للثام تقول بأن رجال أكبر قبائلهم ارتحلوا بعيدا عن مضاربهم لغرض ما، فجاء العدو يطلب خيامهم التي لم يبق فيها غير النساء والأطفال وكبار السن، نصح عجوز حكيم النساء أن يرتدين ملابس الرجال ويتعممن وبأيديهن السلاح فيظن العدو أنه يواجه الرجال حقا، ففعلن وقبل التحامهن مع العدو ظهر رجال القبيلة ووقع العدو بين رجالها ونسائها وانكسرت شوكته، ومنذ ذلك اليوم عهد الرجال على أنفسهم ألا يضعوا اللثام جانباً، والبعض يربط بين اللثام والخجل لطيب فضائل الطوارق، ولكن التفسير الأقرب إلى المحللين هو أن طبيعة المنطقة الصحراوية الرملية وما يمر بها من عواصف،إضافة إلى برد الشتاء القارس كل ذلك يتطلب وشاحا يقي العين والجهاز التنفسي.فهذا التفسير الإيكولوجي رغم هشاشته من الناحية المنطقية – حيث تعيش المرأة الظروف المناخية نفسها، ولكنها تبدو سافرة الوجه في كل الأحوال وفي كل المناسبات والظروف– إلا أنه يظل واردا ومحتملا بحكم ذلك التكيف الذي يلاحظ على حياة التوارق عموما.

– ظاهرة تنظيم الأسرة عند إيموهاغ (التوارق): يرى بعض الباحثين أن قلة عدد السكان في أي مجتمع، يؤدي إلى رفع مستوى المعيشة لأن ذلك يحدث توازنا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية على مستوى الدخل الفردي والجماعي القومي ويمنح نصيبا أوفر للأفراد مما يمتلكون وما ينتجون، كما أنه من الناحية النظرية، فالأسرة صغيرة الحجم تتمتع بمستوى معيشة أعلى من الأسرة الكبيرة ويحمي مستوى المعيشة الذي وصلت إليه.هنا تبرز حركية الجماعة ومدى نفوذ سلطتها على الفرد لأن قرارات تنظيم الأسرة في المجتمع التقليدي تعود إلى الجماعة التي تحدد العلاقات الاجتماعية السائدة فيها.

لقد عرف مجتمع التوارق التقليدي إجراء تنظيم النسل، وطبق عندهم بصرامة حيث يمكن لرئيس القبيلة أن يامر أفراد قبيلته بتحديد عدد المواليد فيكون الأمر بزيادة العدد أو نقصانه تبعا لتزايد الموارد الطبيعية وتوقعاتهم للمستقبل خصوصا في الفترات التي تنذر بالقحط.[15] و يرى البعض انه بإمكان رئيس القبيلة أن يأمر بإيقاف الإنجاب تماما، ويبدو أن هذه العملية قد تكون ضرورة في المناطق التي يقطنها التوارق وذلك نظرا لطابعها المناخي الصحراوي الذي يتميز بالقسوة وندرة المياه، وإنتاجها الذي لا يكاد يكفي سكانها لإشباع حاجاتهم من الغذاء. وعلى

هذا الأساس توصل التوارق – في إطار التوازن الايكولوجي – إلى إيجاد الحل الأمثل بالتحكم في عدد السكان الذين يمكن توفير الغذاء لهم، وهذا يعكس وعيهم الاجتماعي والاقتصادي والبيئي، كما يعكس إدراكهم لمدى الترابط بين العناصر التي تصنع عالمهم، ويحاولون التأقلم على أساس معطياتهم التي تمكنهم من استشراف المستقبل والتخطيط له ولو نسبيا، فالمجتمع التارقي لم يتعامل مع ظاهرة ندرة المياه والقحط التي يمكن أن تكون إشكالا حقيقيا وجادا وخطيرا، تعاملا سلبيا بحيث يستسلم للمجاعة ولا يفكر في المخرج، أو ينزح نحو المدن باحثا عن لقمة العيش، ولكنه يعالج هذه المشكلة بالتخطيط المحكم والتدبير تكريسا لمبدأ التكيف لا التكييف.

المؤنث الحقيقي(المرأة) في المجتمع التارقي: أيقونة الحياة والإبداع

ظلت المرأة عبر العصور والحقب التاريخية موضع تحقير وتهميش عدا في بعض المجتمعات الأموسية (الأمومية)، لكن المجتمع التارقي، صنع الفرق وخرج عن المألوف اجتماعيا وحضاريا عندما منح المرأة مكانة بلغت حد التقديس، وهذا التقديس للمؤنث في المجتمع التارقي لا ينطلق من عقد تتجلى في المتناقضات التي لا يفهمها العقل، كما كان الشأن بالنسبة لكثير من الشعوب والحضارات التي تقارب المجتمع التارقي في البيئة، كالبيئة العربية – على سبيل المثال– في شبه الجزيرة وقبل الإسلام؛ حيث عاش المؤنث ضربا من التناقض واللامعقول في ثنائية محيرة؛ إذ بلغ تقديسه حد التأليه، فكان الإله آلهة كالعُزى ومناة واللاة، كما بلغ تحقيره وإقصاؤه حد الوأد.

أما المرأة في المجتمع التارقي فمكانتها حيث تحب هي وترضى، دون وجود لأي تضارب في القيم والمشاهد الثقافية، ولقد أذهل ذلك الباحثين منذ أن بدأ الاهتمام بالتوارق وبنظام حياتهم المميز، وما زالت تلك النظرة التعجبية والانبهارية إلى ذلك المجتمع وإلى وضع المرأة فيه على وجه الخصوص؛ حيث نشرت مجلة NEW AFRICAN WOMAN[16]، مقالا يعكس ذلك الانبهار بالمرأة التارقية وبمكانتها ووضعها إلى حد الساعة، ووصفتها وصفا يكاد يكون تمجيديا.. فقد جاء في المقال:" المرأة التارقية تتلاءم مع جماليات الفضاءات الصحراوية، فهي تندمج مع المناظر الطبيعية من خلال انتقاء الألوان ونوع اللباس الأصيل، والملحفة الرقيقة والأقمشة المشربة بالبصمات القديمة للنيلة (l'indigo)، تسبح مع الريح كأحلام غير قابلة للتحقق محمولة من قبل الجن. وتلتحف في رشاقة وأناقة بأقمشة رقيقة وذات ألوان زاهية..." بل وأكثر من ذلك، فملاحظة هذا العالم النسوي المبهر، بالنسبة للآخر القادم من عالم المدنية والتكنولوجيا، يعد ترياقا ضد طغيان واستبداد هذا العصر الذي بلغ فيه الإفراط في التطور المادي ذروته، وللمرأة مكانة رفيعة في المجتمع التارقي الأمومي (الأموسي)، ووضعها مشرف داخل ذلك المجتمع؛ حيث يختلف هذا الوضع عن وضع المرأة في الساحل الإفريقي ووضع المرأة المسلمة، حتى إن

القرابة فيه تتحدد من جهة الأم، فكان الأولاد ينسبون لأمهم بموجب المقولة الشهيرة: "النسب يتبع البطن وليس الظهر"، ولعل ذلك يتوضح من خلال مجموعة من الحقوق تتمتع بها، وهي بحق حقوق تجعل منها سيدة ذلك المجتمع بلا منازع، ومنها:

– الكتابة: عندما تنشغل الأبحاث بكتابة المرأة ويأتي التعبير بالكتابة أكثر من القراءة فلأن ذلك يعكس الفاعلية والفعالية فالمرأة إذا قرأت يكون ذلك انفعالا وظاهرة ذاتية وخاصة، أما الكتابة فهي فعل وتفعيل للخصائص الذاتية، ومن ثَمَّ المشاركة والتأثير، وقد ظلت الكتابة في المجتمع التارقي حكرا على النساء يتعلمنها ويعلمنها للناشئة، والتيفيناغ أو التيفيناق ومعناها الحروف الفينيقية التي كان التوارق يكتبون بها، بقيت إلى غاية زمن قريب من اختصاص النساء يتعلمنها ويعلمنها، فلو قارنا هذا الوضع عند التوارق بوضع المرأة في شمال الجزائر في عشرينيات وثلاثينيات القرن المنصرم، لتبين لنا ذلك السبق في الوعي الاجتماعي لدى التوارق، فالمرأة في مجتمع الشمال الجزائري–على العموم– كانت محرومة آنذاك من نعمة القراءة والكتابة، وكان بعض المحافظين يبررون ذلك التعسف في حقها بالمحافظة عليها من نفسها؛ إذ إنها كانت ستستخدم ذلك الحق الشرعي لها – حسب زعمهم وتقديرهم– في كتابة الرسائل الغرامية، وذلك أمر لا يغفره المجتمع لها ولذا فإنه بذلك التفكير يعتقد أنه يقضي على المشكلة من جذورها بحرمانها من حقوقها.[17]

والكتابة –وبالتالي القراءة أيضا– توجهنا إلى استنتاج قيم أخرى أرقى تكتسبها المرأة في المجتمع التارقي، حيث تحيلنا إلى الوعي والثقافة التي تصاحب –عموما– عمليتي التعلم والتعليم، واللتان تعدان مطلب كل الشعوب اليوم من أجل الخروج من بؤرة التخلف والسير في طريق النمو ، وعليه يمكن الجزم بأن المجتمع التارقي مجتمع واعٍ ومثقف، استطاع أن يشكل هوية ثقافية تقوم المرأة بالحفاظ عليها من عملية التغير الثقافي والذي هو أعم وأشمل من التغير الاجتماعي، ويتولد عنه الكثير من العلل المصاحبة للوافد الأجنبي المتمثل في رأس المال الأجنبي والاتصال الخارجي مع الثقافات الأخرى.[18]

– العزف والغناء: إذا كانت صورة المرأة في كثير من الثقافات صامتة[19]، وإذا كانت ممنوعة من الكلام والبوح والتعبير في تلك الثقافات حتى لا يظهر الكائن العاقل الذي يسكنها، وحتى تثبت في حقها فكرة الدونية، وإذا كانت مغيبة عن المشهد الثقافي في مجتمعات كثيرة، فإنها في المجتمع التارقي الصحراوي الأصيل صانعة الثقافة وملهمتها وموجهتها، ويكفيها فخرا أنها مبدعة ومبتكرة في هذه الثقافة، فقد كسرت وحشة الصحراء أو استأنست بها عندما ابتكرت الآلة الوترية (الإمزاد). هذه الآلة يعود تاريخها إلى آلاف السنين، ويحظر استعمالها على الرجال، فالأساطير تقول إن ذلك نذير شؤم، فالمرأة هي التي تعزف في ظلام الحياة ليتبصر الجل في الشؤون

المصيرية؛ حيث تنقله النغمات إلى عالم التفكير دون أن ترى عيناه المرأة التي تعزف، بينما يسبح هو بخياله بعيدا عن المدركات الحسية حوله. ويرجع الفضل في ابتكار هذه الآلة إلى نساء قبائل التوارق الجزائرية، ويروي المؤرخون أن حربا ضروسا نشبت بين قبيلتين فبادرت النساء إلى صنع الإمزاد، ورحن يعزفن عليها، وبسماع الرجال المتحاربين لهذه الموسيقى، يلقون أسلحتهم، ويجنحون للسلام، ومنذ تلك اللحظة تعارف التوارق على أن "الإمزاد" أداة مخصصة لنظام اجتماعي له عاداته وتقاليده الضاربة في أعماق الحضارة الإنسانية أكثر من كونها آلة موسيقية، مما جعل منظمة العلوم والثقافة "اليونسكو" تكرسها ضمن التراث الثقافي العالمي.

وتشتهر الإمزاد بين الآلات الموسيقية المشهورة والمميزة بمنطقة الجنوب الجزائري، وهي تشبه العود في شكلها، ولها وتر واحد وقوس مصنوعة من الجلد، مثبت على قدح من الخشب يربط عليه جلد شاة ويخرج من طرفيه عودان يشد ما بينهما قضيب من شعر الخيل. كما يتم ثقب الجلد ثقبين أو ثلاثة ثقوب في الوسط ليأخذ في النهاية عودا على شكل هلال، ويتم فرك شعر الخيل والوتر الواحد ليصدر صوتا جميلا يتم تغيير نبراته بتبديل أصابع اليد اليسرى.

وهكذا تكون هذه الآلة والأساطير التي حيكت حولها الموجه الأول لقيم السلم في ذلك المجتمع، ولمواقف الرجل الذي يتفاعل بشكل إيجابي مع القيم الثقافية والأخلاقية والاجتماعية التي تبثها المرأة الحارسة الأمينة على موروث التوارق الجميل والمميز، ويزيد الإعجاب والتقدير لهذا المجتمع الذي تحمل رموزه وثيمات الثقافة فيه دلالات سامية وعريقة. كما تعتقد المرأة التارقية "شنة" الخبيرة بالعزف على هذه الآلة "الملقبة بأميرة الوتر الواحد، وعميدة عازفات الإمزاد"، أن الأشعار المغناة والمرافقة للعزف عليها، تحمل دائما رسالة تمجد فيها قيم الحق والجمال، أو على العكس تذم قيم القبح والفساد، وأن قصائد الغزل والحب ينبغي أن تحافظ على عذرية العلاقة بين المرأة والرجل.[20]

التجارة وحق الخروج: كانت التجارة أيضا نشاطا يحق للمرأة التارقية ممارسته دون عقد أو تخوف مما يمكن أن تحققه، بل نظر المجتمع التارقي إلى ذلك بعين الارتاح وتقدير الحاجة؛ حيث يتنقل الرجال كثيرا ويغيبون عن المضارب لأيام طويلة، وما كان المجتمع التارقي ليرضى بأن تتعطل حياة النساء والأطفال إلى حين عودة الرجال، فلا معنى لأن تصاب الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالشلل ريثما يعود الرجال. فهذه الأفكار المتخلفة والمريضة لا تتبادر إلى ذهن الرجل الأزرق المتصف بالحكمة. ولذلك تمتعت المرأة التارقية بذمة مالية مستقلة مكنتها من اكتساب المال والمواشي، ومن ثَمَّ منحها حق المتاجرة والكسب، وفي الوقت الذي كان خروج المرأة فيه يعد عاملا لفساد المجتمع في بعض الثقافات، كانت المرأة التارقية تخرج لممارسة كافة الأنشطة دون سلطة أو رقيب أو تشكيك فلم تحصر وظائفها في الأعباء الداخلية للأسرة وإنما كانت

تخرج لكل ما من شأنه أن يخدم أسرتها ومجتمعها.

– الزواج والطلاق : تنظر المجتمعات إلى المرأة –عادة– كمخلوق فاقد للأهلية، فتمنعها من كثير من الحقوق، ويأتي ذلك المنع من تلك الصورة النمطية لمخلوق خانع لا يحق له أن يبادر إلى شيئ، ويكون الأمر أكثر تعقيدا إذا تعلق الأمر بالعلاقة بين المرأة والرجل؛ حيث تزداد تلك الحساسية ويرتفع ذلك التوتر حفاظا على المكتسبات الكثيرة للرجل، وخوفا من فسح المجال للمرأة في اكتساب روح المبادرة والفعل، وفي ذلك خطر على مصالح الذكورة التي وحدها تمنح الحقوق في الكثير من المجتمعات، ومن هنا جاءت فكرة عدم مقبولية أن تطلب المرأة الزواج أو أن تطلبه من شخص بعينه؛ فقد أوعزت الثقافة الذكورية إلى المرأة أن تكون مطلوبة فقط، وعللت ذلك بالحفاظ عليها جوهرة ثمينة تفقد قيمتها لو حاولت التصرف والتعبير عن تلك الإرادة. لكن المجتمع التارقي نظر إلى المرأة نظرة أخرى خالية من التقسيم البيولوجي والنوعي، فهي في نظره عصب الحياة، والمعين للرجل في حله وترحاله دون نظر إلى مكتسبات الذكورة أو الأنوثة، فالأهم هو التعاون على مسؤوليات الحياة في بيئة صعبة وأحيانا قاسية، ومادامت "الشراكة" هي الفكرة التي تقوم عليها الحياة في فضاء صحراء التوارق، فلم يكن من الأهمية بمكان أن تمنع المرأة من حق اختيار الزوج ثم طلب الزواج منه، لأن ذلك لا ينقص من مكتسبات الرجل التارقي الاجتماعية شيئا؛ فهذا المجتمع قد صنع أريحية كبيرة بين الجنسين، فالمرأة بالمقابل لم تشعر بالضغط عليها كأنثى، ولم يتحول ذلك الضغط إلى كره وبالتالي لم تتشكل لديها عقدة المنافسة مع الرجل. ويبدو ذلك –مثلا– من خلال الوصايا التي تتلقاها المرأة يوم زفافها إلى خيمتها الخاصة من قبل النسوة اللائي يلقِّنَّها دروسا في شكل أغاني تستنير بها في حياتها المستقبلية مع زوجها. ويكون من بين تلك الوصايا أن تحترم زوجها وتقدره وتمنحه كامل اهتمامها والسهر على راحته وشرفه.

كما أن نسبة الطلاق في المجتمع التارقي ضئيلة (على عكس ما هو سار عند توارق النيجر حيث تعد نسبة الطلاق مرتفعة جدا) ضئيلة وهذا يعكس حجم الوفاق الذي ينعم به التوارق كأسر وكأزواج. ولعل من غرائب المجتمع التارقي أنهم كانوا يحتفلون بطلاق المرأة كنوع من الإشهار كي يحق للمرأة بعد الطلاق أن تستأنف حياتها دون شعور بالحقد أو الضغينة للزوج السابق، وهذا رغم غرابته يعكس تلك الأريحية والثقة والوفاق وروح السلم التي تسود بين المجتمع نساءً ورجالا.

– السيادة داخل الخيمة: ليست المرأة في المجتمع التارقي مخلوقا ثانويا ينجب فقط ويرعى المواشي، فهي سيدة خيمتها، وقد بلغت تلك السيادة والحرية إلى حد أنها يمكن أن تستقبل من تريد من الرجال والنساء في خيمتها دون إذن زوجها، بل وحتى في غيابه. ولعل هذه

الفكرة تخلق في أذهاننا بعض التململ من حجم الحرية –ربما– المبالغ فيه، فاستقبال الأغراب والأجانب في الخيمة في غياب الزوج ودون علمه لا يعني في ذهنياتنا سوى شيئ واحد هو الشك والريبة، لكننا ينبغي أن ننظر إلى الموضوع من خلال المخيال التارقي نفسه، فالرجل بحكم غيابه الكثير عن الديار وسعيه وراء الرزق، لا يمكن له أن يشك في زوجته لأن ذلك الشك لا يوصله إلا للقلق والهواجس، فالزوجة يمكنها ان تفعل ما تريد في غيابه ودون علمه، وعوض أن يكون ذلك الأمر ضد الزوج، ارتأى الرجل الأزرق بحكمته واعتمادا على قيمة الشرف والحرية في مجتمعه أن يجعله أمامه وليس خلفه تشريفا للمرأة على فضيلة العفاف والصون، الأمر الذي يجعلها في وضع نفسي مريح لا يوحي لها بالخيانة واختلاق الأكاذيب، وذلك يصب في فضيلة أخرى هي الثقة المتبادلة بين الزوجين وأيضا بين أفراد المجتمع.

الخاتمة:

يخلص هذا البحث المتواضع في رموز التوارق وجزء يسير من فلسفتهم المتعلقة بالحياة وبالآخر إلى جملة من الاستنتاجات، فهذه الثقافة المتشبعة بالدلالات والرموز، تنطلق من فكرتين أصيلتين وبناءتين، ألا وهما "المصالحة مع الذات"، و"الثقة في الآخر" فالعيش داخل مجموعة يقتضي ذلك كله، ويقتضي تقبل الآخر واستيعابه بكل اختلافاته، وهما فكرتان تنبعان من دراية التارقي ببيئته ومحيطه وعالمه، وتلك هي الحكمة التي كان المجتمع الأزرق يتوخاها في كل شيئ ويسعى إليها في كل صغيرة وكبيرة.

إن المصالحة مع الذات، جعلت التوارق يتقبلون بيئتهم كما هي، ويتفاعلون معها بالحب والصبر والاحترام، الأمر الذي جعلها تمنحهم أسرارها وخباياها، وتمنحهم شرف التميز والتفرد. فالأكيد أن حب التارقي للصحراء لم يذهب جُفاء، فقد بادله ذلك المؤنث المجازي حبا بحب، واحتراما باحترام، حتى بدا للآخر (الأجنبي الوافد)، أن الصحراء كلها توارق، وأنه لا وجود لصحراء دون خيمة التوارق وترحالهم وألوانهم المنبئة بالحكمة والسكينة والنقاء.

وفكرة المصالحة مع الذات نفسها، هي التي أسست لعلاقة الرجل بالمرأة، فليست ثمة منافسة أو تسابق بينهما لأجل تحقيق الذات، وليست ثمة نظرة دونية لأحد الجنسين أو لدوره في المجتمع، لأنه لا أفضلية لمجال على مجال آخر، فالطرفان منغمسان في بيئتهما وظروف معيشتهما التي تقتضي منهما التفاني والتعاون والتكامل، فطبيعة البيئة فرضت عليهما معا نوعا معينا من المسؤوليات، ومن يحسن القيام بأدواره يكون جديرا بالتقدير، لذلك لم يفكر التارقي في تقييد حرية المرأة فهو بحاجة إليها كمثقفة وكمبدعة وكشريك كامل الأهلية والإرادة، وتلك الحرية وحدها كفيلة بتحفيز المرأة على العمل والإبداع لصالح المجتمع، لاسيما وقد أظهر لها في أكثر من مجال وموقع حبه واحترامه، وحوَّل ذلك إلى حقوق ومكتسبات نسوية لا تراجع عنها، فبادلته

وهي المؤنث الحقيقي، الحب والوفاء والتقدير.

وهكذا يمكن الإجابة عن التساؤل المطروح في البداية عن سر شغف التارقي بمؤنثين أحدهما مجازي والآخر حقيقي، منحا ثقافته وواقعه إعجاب العالم وتعاطفه، وحنينا دفينا في أحلام كل غريب في عالم المدنية والتكنولوجيا والرقمية، إلى دخول خيمة التوارق ولو مرة في العمر، والإبحار في صحرائهم الفاتنة، والتزيي بزيهم ذي الجبروت الجمالي الأخاذ، والسحر اللامتناهي. فالسر كله يكمن في الوقت الذي منحه التارقي لنفسه كي يفهم ويقرر. وبالفعل لقد فهم التارقي نفسه وعالمه وبيئته، فسَهُل عليه فهم الحياة من حوله، فرحب بالمؤنث الذي يحتويه كمكان، وبالمؤنث الذي يشاطره الحياة ويصنعها معه، الأمر الذي أفضى لإبداع مؤنث آخر ألا وهو "الحضارة".

الهوامش:

[1] حسين الصديق، الإنسان والسلطة دراسة في إشكالية العلاقة وأصولها الإشكالية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، **2001**، ص **14**.

[2] حسين فهيم، قصة الانتروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، علم المعرفة، سلسلة يصدرها مجلس الثقافة والفنون والآداب الكويت **1978** ص **13–33**.

[3] **PAUL SOLEILLET; L'AFRIQUE OCCIDENTALE; ALGERIE, MZAB, TILDIKELT AVIGNON ; IMPRIMERIE DE F. 1877 PARIS.**

[4] أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر،د دار النشر، ط2، **1956**، ص**12**).

[5] **Paul Pandolfi. LES TOUAREGS ET NOUS. UNE RELATION TRIANGULAIRE; MIROIRS IDENTITAIRES.N°2, printemps 2001; E t h n o l o g ies comparées. Heure et date de navigation: 02/02/2011 Site Web http://alor.univ-montp3.fr/cerce/revue.ht .**

[6] **GAUTIER, E. F., 1935, La conquête du Sahara, Armand Colin.p182 ,Paris.**

[7] **STEFANINI J., 1926, Au pays d'Antinea, Paris, Plon p45.**

[8] **op.cit. PANDOLFI.**

[9] منتدى الحدائق، حديقة الثقافه والأدب / الاتاحة

http://www.alhadeeqa.com/vb/archive/ ، تاريخ الزيارة **2011/02/02**.

[10] **Archives orales du CNRS & Centre national de la recherche scientifique .édité par Jean-François Picard. Site Web http://www.histcnrs.fr/HistCNRS.html/ et /http://www.ivry.cnrs.fr/spafrican/chercheurs/dcasajus1.htm/ Ivry.cnrs.fr/ .CASAJUS. Heure et date de navigation: 02/02/2011.**

[11] محمد رياض، الإنسان دراسة في النوع والحضارة،ط2، بيروت، دار النهضة للنهضة والنشر، **1984**، ص**362**.

[12] راجع مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، جمع وترجمة عمر كامل مسقاوي، بيروت، منشورات

المكتبة العصرية، ص72.

[13] **Histoire de l'art/ onesttousdesartistes. Heure et date de navigation: 02/02/2011/ Site Web/www.onesttousdesartistes.tv/histoire-**

[14] **Dominique CASAJUS/ op.cit**.

[15] محمد بوقليلة، التوارق عبر العصور. مخطوط . ورقة1. نبذة تاريخية حول قبائل ايموهاغ (التوارق)

الاتاحة: **http://vb.we3rb.com/showthread.php?t=48462#ixzz1FhbZuqkm**

تاريخ الزيارة **2011/03/02**.

[16] **NEW AFRICAN WOMAN Magazines/: Heure et date de navigation: 02/02/2011/ Site Web2010**) / **http://www.relay.com/la-librairie.html**

[17] قنان عبد المجيد، مظاهر الإصلاح الديني والاجتماعي والتربوي في الجزائر من خلال جهود رواد المصلحين (**1900–1925**)، ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر(**1991–1992**)، ص**249**.

[18] التغير الاجتماعي، منتدى الجامعات السعودية : **ksau.info/vb/.** ، الاتاحة:

http://www.ksau.info/vb/forumdisplay.php?s=f91d510c2d87ee2d9945ed6f37c1f7dd&f=132

تاريخ الزيارة : **2011/02/04**.

[19] عبد الله محمد الغذامي، المرأة واللغة 2 ثقافة الوهم "مقاربة حول المرأة والجسد واللغة"، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 ، 1998، ص 66.

[20] نقلا عن حصة "خفايا" التلفزيونية لقناة mbc، في خميس الثامن من أفريل 2010، مع العجوز شنة الملقبة بأميرة الوترالواحد، وعميدة عازفات الإمزاد.